المحاضرة الثالثة (حصة واحدة): النظريات المفسرة لعلم النفس النمو

*** تمهيد:**

النموذج النظري أداة منهجية لشرح و تفسير الظواهر و العلاقات القائمة بينها، و لكل نموذج جهازه المفاهمي و مبادئ تفسيرية توضح العلاقة بين الظواهر و المتغيرات، و تعتبر النظرية مرحلة أخيرة في تحليل المعطيات المتعلقة بمجال معين، و هي تقوم بوظيفة اختصار مختلف المراحل و المعطيات التي مر منها البحث العلمي في تفسير ظاهرة معينة. كما تقوم بإنشاء أنساق تفسيرية أو شبه تفسيرية بكيفية ملتحمة و نسقية، و يمكن اعتبار نظرية التحليل النفسي سواءاً مع "فرويد" أو في بعده الاجتماعي مع "إريكسون"، و كذا النظرية التكوينية مع "بياجيه" من أهم النظريات التي قاربت النمو و حددت مراحله و أغنت البحث السيكولوجي متجاوزة ظاهرة النمو إلى الابستومولوجيا و التربية و العلاج النفسي.

1- نظرية التحليل النفسي" فرويد":

أكد "فرويد" على وجود طاقة غريزية تولد مع الإنسان أطلق عليها الشبق (الليبدو)، و هي قوة حيوية و طاقة نفسية، تتحرك و تؤثر في السلوك الإنساني، و مفتاح فهم السلوك الإنساني عند " فرويد " هو تحديد مركز الليبدو، و هي تتركز في مناطق مختلفة من الجسم عبر مراحل النمو المختلفة، و أهم هذه المراحل هي:

أ -المرحلة الفموية (الأولى من عمر الطفل):

تغطي هذه المرحلة السنة الأولى من عمر الطفل، حيث يحدث الإشباع عند الطفل من إستثارة الشفاه و اللسان و الفم، و إذ لم يتم الإشباع الفموي خلال هذه المرحلة بشكل مناسب فقد يطور الطفل عادات مثل: مص الأصابع، أو قضم الأظافر أو ربما التدخين في مراحل لاحقة من عمر الطفل.

ب- المرحلة الثانية (من 2 – 3 سنة):

و تغطي العامين الثاني و الثالث من عمر الطفل، حيث يتزايد وعي الطفل باللذة الناجمة عن حركة

الأمعاء على الأغشية المخاطية للمنطقة الشرجية، و لإشباع الحاجة الحيوية للتخلص من الفضلات.

و يرى "فرويد" أن بعض الخصائص التي يتمتع بها الفرد في مراحل لاحقة من حياته مثل: العناد و البخل تنبع من الخبرات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة.

ج- المرحلة الثالثة (من 3 – 6 سنوات):

و تعبر هذه المرحلة عن عقدتين، عقدة "أوديب" عند الأطفال الذكور، فمن وجهة نظر "فرويد" أن الطفل يتعلق بأمه و يجد أن الأب منافسا قويا له، و لحل هذه العقدة يتبنى الطفل مبادئ مثل أبيه فيتطور لديه الأنا الأعلى، أما عند الإناث فيعتقد "فرويد" بوجود عقدة "إلكترا "من خلال تطور مشاعرها نحو الأب، و لكنها تخشى العقاب على يد أمها، فتتبنى قيم و مُثل أمها، فيتطور لدى الإناث الأنا الأعلى.

د- المرحلة الرابعة (من 6 – البلوغ):

و يطلق عليها مرحلة الكمون، و تتسم بالهدوء في الطاقة، و يكرس الطفل وقته و طاقته للتعلم و الأنشطة البدنية و الاجتماعية، و يتحول اهتمام الطفل من الذات إلى الآخرين من خلال تكوين العلاقات و الصداقات معهم.

هـ- المرحلة الخامسة (المراهقة):

و يطلق عليها المرحلة التناسلية، و تغطي هذه المرحلة فترة المراهقة، و تصبح مهمة الفرد أن يحرر نفسه من والديه، بالنسبة للذكور فإن ذلك يعني التخلص من التعلق بالأم، و أن يجد حياة خاصة به، أما البنت فتسعى إلى الزواج و أن تنفصل عن الأبوين، و تقيم أسرتها و حياتها الخاصة. و إذا كان التطور في النمو ناجحاً في هذه المرحلة و المراحل السابقة، فإن ذلك يقود إلى الإستقلالية و النضج و إنجاب الأطفال و تربيتهم.

و تناول" فرويد" في نظريته مستويات الشعور، حيث:

- **الشعور**: هو كل ما يعيه الفرد في لحظة معينة.

- **ما قبل الشعور**: هي الذكريات المخزونة و التي يمكن إستدعاؤها.

- **اللاشعور**: و هو أعمق المستويات النفسية، و يتكون من الذكريات التي تؤثر في السلوك، و لا يمكن استدعاؤها، و لكن تظهر في الأحلام و زلات اللسان.

و تناول أيضاً " فرويد " في نظريته مكونات الشخصية و قسمها إلى:

- **الهو**: هو مصدر الطاقة و الغرائز، و الحاجات، و هو لا شعوري و لا منطقي و يوجهه مبدأ اللذة.

- **الأنا**: جزء منه شعوري و الجزء الآخر لا شعوري، و يعتبر الجهاز الإداري للشخصية (مركز الصراع).

- **الأنا الأعلى**: و يمثل الضمير، و يضم القيم الدينية و الأخلاقية، و يؤثر على السلوك.

و غالباً ما يحدث الصراع بين المكونات الثلاث.

2- نظرية النمو المعرفي " بياجيه ":

ركز "بياجيه" على النمو المعرفي، و إهتم بدراسة نمو المفاهيم الأساسية عند الطفل مثل: مفهوم الزمان، مفهوم المكان، مفهوم العدد، مفهوم المساحة، و ينظر "بياجيه" إلى التطور المعرفي من زاويتين هما: البنية العقلية و الوظائف العقلية.

2-1: مراحل النمو عند بياجيه:

أ- المرحلة الحسية الحركية (من الميلاد – العام الثاني) و تتميز بما يلي:

- يمارس الطفل أفعال بدائية (ردود أفعال للمثيرات).

- اكتشاف طرق جديدة لحل المشكلات، و بداية التخيل و الكلام، و المشي.

ب- المرحلة قبل الإجرائية (ما قبل العمليات من 2 – 7 سنوات) و تتميز بما يلي:

من أهم مظاهر النمو المعرفي في هذه المرحلة هي عدم الثبات (عدم فهم أن الشيء يمكن ان يتغير و

يعود لحالته (مثل عمليات الطرح).

– تتميز بنمو اللغة و التفكير عند الطفل.

ج– مرحلة العمليات الحسية (الإجراءات المادية من سن 7 – 11 سنة) و تتميز بما يلي:

– تصنيف الأشياء المادية المحسوسة (الأكبر – الأصغر – الأطول – الأقصر...الخ).

– إدراك الزمن (الأمس – اليوم – الشهر...الخ).

– نمو القدرة على توزيع الانتباه، و تركيزه.

– القدرة على قابلية التفكير العكسي (مثال: الجمع، الطرح، القسمة، الضرب) .

د– مرحلة الإجراءات الصورية (المراهقة) و تتميز بما يلي:

– نمو القدرة على التفكير المجرد (مثل مفهوم الخير، العدل، التعاون...الخ).

– القدرة على حل المشكلات.

– نمو القدرة على التخيل و إستخدام الرموز و فهم الكتابات و الأمثلة.

3– النظرية النفسية الاجتماعية " اريكسون":

يرى "اريكسون" أن نمو الشخصية يتم في ثمان مراحل من الطفولة إلى الشيخوخة، و كل مرحلة تمثل نقطة تحول تتضمن أزمة نفسية إجتماعية يعبر عنها إتجاهان: أحدهما خاصية مرغوبة، و الآخر يتضمن خطراً.

و أكد " اريكسون" على أن الأزمة النفسية الإجتماعية يجب أن تحل قبل أن ينتقل الفرد بنجاح إلى المرحلة التالية.

3–1: مراحل النمو النفسي الاجتماعي عند اريكسون:

أ– مرحلة الثقة عدم الثقة (العام الأول):

إذا حصل الرضيع على إشباع حاجاته الأساسية و شعر أن العالم آمن من حوله، تتربى فيه الثقة في

نفسه و في الوالدين، و إذا فشل في ذلك و كانت الرعاية و إشباع الحاجات الأساسية غير كافية، ينمو لديه الخوف و عدم الثقة.

ب- مرحلة التحكم الذاتي مقابل الشك (2 –3 سنوات):

التحكم في عمليات المشي، و الإخراج و الكلام، يؤدي إلى الشعور بالإرادة، أما الفشل في ذلك مع نقص المُساندة، يؤدي إلى شعور الطفل بالخجل و الشك في الذات و الشك في الآخرين.

ج- مرحلة المبادرة في مقابل الذنب (5-4 سنوات):

إذا أتيحت الفرصة للطفل للعب بحرية، و أجيب عن أسئلته، فإن ذلك يؤدي إلى المبادرة، أما إعاقة نشاطه و عدم الإجابة عن أسئلته، و اعتبارها مصدر ضيق يؤدي إلى الشعور بالذنب.

د- مرحلة الاجتهاد مقابل القصور (6 - 11 سنة):

ينمو لدى الطفل الشعور بالإجتهاد و المثابرة في المدرسة، و عن طريق التشجيع يتعلم المثابرة و الإجتهاد ، أما إذا تلقى تعزيزا سالباً فقد يشعر بعجزه عن أداء الأعمال المطلوبة منه، و ينمو لديه شعور بالقصور يمنعه من المحاولة.

هـ- مرحلة الذاتية مقابل تشوش الدور (11-12 سنة):

يكون المراهق في مرحلة تساؤل تصاحب الطفرة الجسمية، و من خلال تحديد الهوية و الاهتمامات يحقق المراهق ذاته، أما اذا شعر بعدم تحقيق ذاته، فإنه يشعر بتشوش الدور، و لكي يعوض ذلك التشوش في الدور فقد يلجأ المراهق إلى التعلق ببطل أو شخص مثالي لكي يحقق ذاته.

و- مرحلة التواد مقابل الانعزال (سن الرشد المبكر):

يحاول الراشد أن يربط ذاته بشخص آخر، و التزاوج من الجنس الآخر، و تنمو العلاقة الحميمة معه، أما إذا تجنب العلاقة الحميمة بسبب الخوف من تهديداتها لذاته، فينتج عن ذلك الانعزال و الاستغراق في الذات.

ز- مرحلة التولد مقابل الركود (الرشد الأوسط):

و تظهر في هذه المرحلة المشاعر الوالدية، و يبدأ في الاهتمام بالرعاية و إرشاد الأجيال التالية، و يهتم بالعمل و الإنتاج و الابتكار .. و الشخص الذي لا يملك تلك الاهتمامات يصبح راكدا مهتما بذاته فقط.

ح- مرحلة التكامل مقابل اليأس:

و تمثل مرحلة الشيخوخة، إذا تقبل المسن حياته و عجزه و مرضه، و خروجه إلى التقاعد، و فقد الزوج أو الزوجة، يؤدي ذلك إلى التكامل و التماسك، و الحكمة، أما عدم تماسك الأنا و الشعور بأن الوقت فات و لا يمكن تعويض الفرص التي فاتت، فإن ذلك يؤدي إلى اليأس و الخوف في آخر مراحل العمر.

4- نظرية النضج " ارنولد جيزل":

- تعتبر هذه النظرية إحدى النظريات الهامة في تفسير النمو، حيث لعبت دورا هاما في الدراسات النفسية الخاصة.

- يرى "جيزل" أن التشابهات النَمائية لها أصول بيولوجية، و من وجهة نظر الناس أنهم متشابهون تماما، و ذلك لأنهم متأثرون بعوامل داخلية واحدة، و لم ينكر جيزل اكتساب الطفل معلومات عن طريق الخبرة مباشرة.

- و يؤكد كل من "جيزل" و "بياجيه" و كذلك علماء التحليل النفسي على مراحل النمو، و لهذا يسمون بأصحاب " نظريات المراحل".

5- نظرية "روبرت هافجهرست":

قدم " هافجهرست" نظريته من خلال تقديمه لمفهوم "مطلب النمو"، حيث يعتبر النمو بأنه سلسلة من الواجبات يجب أن تتحقق في إطار زمني محدد لتحقيق التقدم النهائي على نحو صحيح للفرد، و يقصد بمطلب النمو ذلك المطلب الذي يظهر في فترة ما من حياة الفرد، و الذي إذا ما تحقق إشباعه

بنجاح أدى إلى شعور الفرد بالسعادة ما يعني تحقيق مطالب النمو المُستقبلية، بينما يؤدي الفشل في إشباعه إلى عدم الرضا و الشقاء و الرفض من المجتمع و عدم التوافق مع مطالب المراحل التالية من الحياة.

كما ترى هذه النظرية إلى أن النمو هو نتاج تفاعل بين النواحي البيولوجية و النمط الثقافي للمجتمع الذي يوجد فيه الفرد و مستويات طموحه، و على ذلك فإن بعض المطالب تظهر كنتيجة للنمو العضوي، مثل المشي في سن معينة من حياة الطفل و بعضها يظهر عن آثار و الضغوط الثقافية للمجتمع، مثل تعلم القراءة و الكتابة، و بعضها ينتج من القيم التي يعيش بها الفرد و من مستوى الطموح الذي يهدف إليه.